فى عالم الروح

للأستاذ عباس محمود العقاد

تلقيت من الأستاذ صاحب التوقيع رسالة جاء فيها : « أن العالم الطبيعى ادوين ريد تحدث مستخفاً برؤيا رآها فى منامه وهى صليب كتب عليه اسمه ويليه أنه توفى فى ٧ نوفمبر سنة ١٩١٠ ولم يحن ذلك اليوم حتى فارق الحياة وكتب على صليب قبره اسمه بذلك التاريخ

ثم نقل من كتاب الأرواح للشيخ طنطاوى جوهرى كلاماً مخواه أن الدكتور جيبية رأى فى منامه مكتبة عامرة لجاره لم يرها ولم يسمع بها من قبل ، وتصفح عناوين الكثير من كتبها ، ثم ذهب إلى الدار ليرى مبلغ صحة رؤياه ، فإذا تلك المكتبة بعينها والكتب بعناوينها حتى أثناءها كما شاهده فى النوم بلا اختلاف .

ثم نقل عن الجزء الخامس من مجلد الهلال الخامس والخمسين حلماً فصله الكاتب الخطيب المبين الأستاذ محمد توفيق دياب بك وذكر أنه رآه بتفصيله فى اليقظة بعد ذلك بيومين .

وأضاف الكاتب إلى ما تقدم خلاصة حلم رآه فقال : « ولى رؤيا عجيبة وهى أننى تحدثت مع صديق فى أمور اجتماعية وإذا به يستشهد بمقطوعة من أرصن الشعر وأسلسه وأبلغه . حفظت بعضها مع العلم بأننى بطىء النظم لا أكثر من تعاطيه ، وكنت متوجهاً بكليتى للاستماع مع الإعجاب الشديد . ويقال أن ليس للانسان إلا عقله الباطن عند النوم ، وكان عقلى الباطن كما علمت متوجهاً للاصغاء وتتبع ما يلقى عليه لا غير ، ويقال إن الإنسان لا يفكر بشيئين فى آن واحد ... تصور أنك تسمع لخطيب وأنت متتبع لأقواله بكل إعجاب : هل يجوز الادعاء بأن ما تسمعه من بنات أفكارك ؟ إذن من هو الناظم ؟ وهل هو أنا ؟ وقد برهنا على استحالة ذلك ؟ . . وكيف يتم صدق الرؤيا لحوادث المستقبل البعيدة عن المصادفات ، والتى لم تكن أصداء لماض قريب أو بعيد ولكنه تنبؤ بمستقبل مجهول ؟ . .

عبد الجبار محمود الوائلى

(بغداد) خان الشبندر الجديد

* * *

شىء واحد يمكن أن يقال على سبيل التحقيق فى الجواب عن هذه الأسئلة : وهو أن الجزم بنفى هذه الروايات على اعتبار أنها مستحيلة الوقوع إنما يكون نفياً باطلا لا يعتمد على سند من العلم ولا من البراهين المنطقية .

فوقوع الأنباء على هذه الصورة ليس بالمستحيل .

ومن قال باستحالته وجب أن يثبت لنا أنه على علم تام بأسباب الاتصال بين كل نفس ونفس وكل مادة ومادة أو كل نفس ومادة فى هذا العالم الذى نعيش فيه .

وليس فى وسع أحد أن يزعم أنه على علم تام بأسباب الاتصال بين مادة ومادة فى عالم المكان ، ودع عنك صلات النفوس والعقول التى لا تقع تحت الحصر ولا يحيط بها العيان .

فى هذا الفضاء الشاسع أشعة من النور لا تراها العين وهى مع ذلك تنفذ فى المادن الصلاب وتؤثر فى الأحياء وغير الأحياء؛ وبعض هذه الأشعة يعرف بالآلات وبعضها لا يعرف بغير التقدير والترجيح ، وكلها لا تغنينا شيئاً فى بيان سبب التأثير الذى يقع من جرم على جرم آخر فى أجواز الفضاء الرحيب . فما هى قوة الجذب ؟ وما هى قوة الدفع ؟ وما هى قوة الإشعاع ؟ ولماذا يكون الإشعاع حركة سارية تنطلق من الذرة المشطورة فتعصف بالقوى ؟ وما الذى يتحرك حين يحدث هذا الإشعاع ؟ هل الحركة هى القوة أو الحركة نتيجة القوة ؟ وكيف تحدث هذه أو تلك أو تنتقل بالمقدار الذى يرصده الراصدون ؟

كل هذه أسئلة لا يقطع المجيب عنها بجواب مفروغ منه متفق عليه ، وهى مع ذلك أسئلة عن النور أى عن المثل الأعلى للوضوح والظهور فيما تقع عليه العين ويتمثل به اللسان .

فالذى يزعم لنا أن أسباب الاتصال بين نفس ونفس ، أو بين عقل وعقل ، محصورة محدودة يمتنع كل ما عداها ، فهو مدع بما ليس فى علمه ولا فى علم أحد من البشر ، ويلزمه دليل ما يدعيه ولا دليل هناك .

لكن هل يجوز لنا أن نبنى على هـذا أن تلك الأنباء قطعاً من إيحاء عقل لعقل أو رسالة روح إلى روح ؟

إن أسئلة كثيرة تلزمنا قبل أن نخلص إلى هذا القول على وجه التحقيق ، ولنضرب المثـل بما رواه صاحب الخطاب عن إدوين ريد .

فهل رأى إدوين ريد نبوءات أخرى غير النبوءة بيوم وفاته ؟ وهل رأى غيره نبوءات مثل نبوءته بيوم الوفاة ؟

إن كانت رؤيا إدوين ريد هى النبوءة الوحيدة التى صدقت فهناك محل للسـؤال : لم لم تتهيأ روحه لمعرفة الغيب إلا فى هذه الحالة ؟

وإن كانت هى واحدة من نبوءات كثيرات كذبت كلها ما عدا هذه النبوءة فاحتمال المصادفة هنا يخطر على البال إلى جانب الاحتمال الآخر : وهو تلقى الرسالة من عالم الروح . ويوم « ٧ نوفمبر سنة ١٩١٠ » كأى يوم آخر فى أيام السنين ، لا موجب لاستثنائه ولا موجب للقطع بأن الإنباء به من توفيق المصادفات

وقد يجوز أن ألف إنسان غير إدوين ريد لاحت لهم فى الرؤيا تواريخ تنبىء عن يوم وفاتهم . فلماذا لم تسجل هذه التواريخ كما سجل تاريخ « ٧ نوفمبر سنة ١٩١٠ » ؟

إن كانت صدقت كلها ولم تسجل كلها فهذا غريب مستبعد ؛ وإن كانت لم تسجل لأنها لم تصدق فإن احتمال المصادفة يزداد ، لأنه حالة واحدة بين مئات من الحالات .

وإنما تخرج هـذه الأنباء من عالم الغرائب والمصادفات إلى عالم الحقائق المتواترة إذا أمكن تطبيقها كما تطبق تجارب العلوم ؛ وليس هذا التطبيق بالميسور فى مسائل العـقل والروح ، لأنك تستطيع أن تحكم بأن كل مادة ككل مادة ، وأن التجربة فيها تتكرر على منوال واحد أو مع اختـلاف جد يسير . ولـكنك لا تستطيع أن تحكم بأن كل عقل ككل عقل فى الخصائص والآثار . فيجوز أن روحاً تتلقى وروحاً أخرى لا تتلقى ، ويجوز أن حالة التلقى لا تطرد فى جميع التجارب على نمط واحد .

وههنا موضع الإعضال فى تعميم الحكم على مسائل العقول والأرواح .

فغاية ما ينتهى إليه اليقين فى هـذه المعضلة أن الاتصال بين العقول أو بين الأرواح غير مستحيل ، ولـكنه كذلك غير محتوم من الأمثلة التى تذكر فى هذا السياق ، وبخاصة إذا نحن أحضرنا أن الرواية عن المنام تتسع لـكثير من التحريف والانحراف ، لأن المنام بطبيعته غير مثبت للمراجعة والتأكد من الصور الغامضة التى تتلاحق فيه ، وقد يتممها الخيال بعد وقوع الحوادث التى تشبهه فى عالم اليقظة ، وإن تقاربت المسافة بين رؤية اليقظة ورؤيا المنام .

فيجوز أن الرؤى التى أشار إليها الـكاتب رسائل من روح إلى روح ، أو من العقل المحيط إلى عقول الآحاد . ولـكن الجزم لا تسكفى فيه هذه الرؤى ولا تلك الروايات .

***

أما نظم القصيدة فى المنام وتخيل الإصغاء إليها من صديق فهو ظاهرة مختلفة تسكفى التجارب النفسانية لتفسيرها ولا استحالة فيها على الإطلاق .

لأن نظم الشعر فى النوم يحدث لغير قليل من الشعراء ، وقد روى عن كولردج الشاعر الإنجليزى أنه نظم قصيدة مطولة من أجود شعره وهو نائم ، ولست أستبعد ذلك . لأننى تتفق لى أبيات من الشعر أنظمها فى المنام وأنا مشـغول الذهن بالنظم أو غير مشغول ، وإن لم يتفق لى فى هذه الحالة نظم المطولات .

أما استحالة النظم والإصـغاء فى وقت واحد فليس بواقع . لأن الإصغاء تخيل لا حقيقة له فى الخارج ، وكل ما فيه أنه هو الصورة الرمزية التى اتخذها الوعى الباطن لظهور تلك الأبيات فيه

ومن طبيعة الأحلام أنها رمزية تتخيل المعانى والمؤثرات فى صورة المحسوسات . فيبدو للمكروب فى حلمه أن عدواً مطارداً يشدد عليه الخناق ، أو أن وحشاً مفترساً يبطش به فى مكان لا مهرب منه وهكذا يتخيل الوعى الباطن أنه يصغى إلى متـكلم وهو الذى ينظم ما يصغى إليه فى الخيال .